وضعنا النقدي ، بعض من سماته وامكانياته

محمد بنيس

1 ـ ربما كان أطول صراع عرفته الساحة الثقافية بالمغرب منذ بداية السبعينات هو الذي انفجر فجأة في السنة الماضية ، حول وضعية النقد بالمغرب ، على صفحات الجرائد الوطنية ، وخاصة الملحق الثقافي « للعلم » ، و « المحرر الثقافي » . ولعل هذا الصراع الذي دامت مدته ما يقارب السنة ، دون أن ينكسر الدافعون اليه ، والخائضون فيه ، بدأ الآن يدخل مرحلة من الصمت ، بعد أن انهك الجميع ، من المشاركين والمتتبعين ، تعب لا يقل عن تعب المحاربين الذين أدركوا أن معركتهم خاسرة ، لانها من غير منطلق واضح ، أو هدف واضح أيضا .

وقد تتبعنا ، مع المتتبعين ، هذا الصراع النقدي ، وحاولنا الا نتدخل فيه ، حتى تستوى الامور ، نجمع حصيلته ، نراجعها ، ونقرأها بوعي نقدي ، يستخلص المحاور الاساسية لهذا الصراع ، وأبعاده الثقافية ، ونتائجه التي يمكن أن تصلح كأرضية لانطلاقة صحيحة ، لا تجعل من الظروف الموقتة حصانا لها ، ولا تمتهن القذف والكلام اللا مسؤول ، أو تساعد على تسييد الغموض في الاختيارات والتوجيه معا . وقد كنا نشعر ، منذ الوهلة الاولى ، من انفجار هذا الصراع ، بأن جل ما يكتب بعيد عن النقد الادبي ، وبعيد عن الثقافة . بل له علاقة بمجالات أخرى سنحاول التعرض اليها ما وسعتنا الموضوعية .

2 ـ وسنكون مغالطين اذا قلنا بأن كل ما كتب لا يدخل في مجال النقد لان قلة من المتدخلين في الصراع كانوا مدفوعين لمناهضة بعض القيم النقدية والسلوكية التي يحاول المدعون جعلها أساسا للممارسة النقدية ، بعد أن استغلوا وسائلهم الاعلامية ، مبشرين بآرائهم المغالطة ، على امتداد العناوين البارزة . غير أن هذه القلة من المتدخلين ، وهي تواجه كتابة نقدية بالمفهوم المنحط لهذا المصطلح ، لم تكن هي الاخرى قادرة على فرض رأيها ، لان كتابتها ، أخيرا ، ضاعت بين غبار أهوج ، لم يترك خيطا واضحا يظهر ، ولا نورا يتسرب الى أذهاننا . ولذلك فان قلة ما كتب في مجال النقد ،

منهجا وتطبيقا ، بقي هامشيا داخل هذا الصراع ، الذي كانت العوامل الذاتية مرة ، والعوامل غير الثقافية مرة أخرى ، هي المهيجة لكوامنه .

3 ـ لم يكن غريبا علينا ، في مثل وضع ثقافتنا المأزومة ، ان ينفجر صراع حول النقد ، مناهجه ، واشكالياته من حيث الاختيار والتطبيق ، ولكن الذي أعطى لهذا الصراع صفة المباغتة هو أن يبدأ كرد فعل ذاتـــي ، وضيق الافق ، على التحولات الثقافية والمناسبات السياسية التي كانـت تدعو فعلا لوجود صراع نقدي مشروع ، وليس لصراع نقدي مفتعل .

ان الصراع النقدي ، مثله مثل كل صراع في أي من المجالات الثقافية ، وكما علمنا تاريخ الادب عربيا وانسانيا ، يأتي نتيجة موقف نقدي يتخذه ناقد أو جماعة من النقاد أو الادباء ضد تيار سائد أو موجود . والموقـف النقدي ، الفردي أو الجماعي ، يأخذ ، في هذه الحالة ، صفة الدفاع عـن قيم نقدية ، جمالية وفلسفية ووظيفية ، ذات بعد طبقي بالتأكيد ، هـي نقيض السائد أو الموجود من قيم نقدية أخرى تهيمن على الذوق الادبـي والنقدي العام ، والصراع ، بهذا المعنى الذي نعرفه ، يكون محدد السمات ، واضحا في اختياراته ، ومفاهيمه ، ومصطلحاته ، وبالتالي يشكل في كليته انسجاما وتكامـــلا .

اذن ، لم يظهر شيء من هذا القبيل في صراعنا النقدي الذي عرفتـه الساحة الثقافية في السنة الماضية ، وما ظهر واستبد بالصحف والاذهان معا ، بعيد كل البعد عن النقد ، كاختيار منهجي ، ودعوة لمبادىء جماليـة وفلسفية ، وتحديد لمهمته الوظيفية . ولاجل كل هذه الاسباب ، مجتمعة ومنفصلة ، أصبح من اللازم علينا ، كمثقفين ، نريد تحمل مسؤوليتنا الثقافية في هذه المرحلة الصعبة من تاريخنا الحديث ، ان ننكب على ممارسة قراءة نقدية لهذا الصراع ، حتى نكون على بينة من بعض ما نحن فيه ، وما يجب علينا تخطيطه وتنفيـــذه .

4 ـ ان هناك فعلا أزمة نقدية تستحق منا وقفة متأنية ، تـــدرس جذورها ، وتفهم مظاهرها ، وتفسر أسبابها ودوافعها . أزمة اثارها الادباء والنقاد وجمهور المثقفين على صفحات الجرائد والمجلات ، وفي كثير من الندوات واللقاءات والمناقشات ، افرغت كلاما مكررا ومستجدا ، توجه أصبع الاتهام الى النقاد تارة ، والى الادباء تارة ، والى مجالات النشر تارة ، ولم يعد خافيا على أحد أنها دائمة الطرح في الساحة الثقافية بمستويات متعـــددة من الوضوح والوعي ، تتناول المنهج ، والمصطلح ، والوظيفة ، والفعالية ، ولكنها لم تجد فرصة لتنفجر ممنهجة ، وواضحة ، وهادفة . ولم يكـــن انفجارها ، الذاتي والعفوي ، في السنة الماضية على الشاكلة التي طبعت بها الا تأكيدا على أن مواجهتها أضحت ضرورية .

5 ـ وازمتنا النقدية ، والصراع حولها ، جزء من أزمة النقد العربي ،

فالتاثير بينهما متبادل ، ولو بشكل غير متكافيء ، والنتائج تنسحب عليهما معـا . ومع ذلك فان أزمة النقد بالمغرب تظل تحتفظ لنفسها بخصوصية لا سبيل الى القبض عليها ، عند اغراقها في طبيعة الوضعية النقدية في العالم العربي ككل ، فالعلاقة بينهما لا تلغي الفرق ، والصلات الوثيقة بينهما غير متكافئة ولا متجانسة ، وبهستتبع هذه الملاحظة ضرورة اعتبار الفرق والتاكيد عليه ، والحيطة في معالجة الواحدة منهما بأسلوب الاخرى . وهذه الملاحظة الاساسية في نظرنا هي السبيل لعدم عزل أزمتنا النقدية عن محيطهـــا العربي ، وتلبيسها خصائص فطرية محلية ، تنظر لواقعها الموضوعي بعين عمياء ، وهي في نفس الوقت تمدنا بالطرح القريب الى الصحة ، ان لم يكـن الصحيح ، لازمة النقد العربي ، من خلال ملامحها وخصائصها النوعية في كل منطقة على حدة ، تؤدي بنا في النهاية الى وضع خريطة ماموسـة لازمتنا النقدية على طول البلاد العربية وعرضها ، تدرس القضايا الجوهرية ، ولا تتناسى الفروق الثانوية التي تلعب بالتاكيد دورا خطيرا ، عنـد اهمالها ، في تقديم صورة غير دقيقة ولا واقعية عن أزمتنا النقدية في العالم العربي . ولاجل كل ذلك نجد رصدنا للصراع النقدي الذي عرفته الساحـة الثقافية بالمغرب منبثقا عن وعي قومي ، لانه جزء من رصدنا للوضعيـة النقدية في عموم العالم العربـي .

6 ــ اجتاز النقاش حول وضعيتنا النقدية مرحلتين بارزتين قبل أن ينفجر على مشكل صراع محموم . كانت المرحلة الاولى أثناء وبعد لقاء الشعر المغربي الذي نظمه اتحاد كتاب المغرب سنة 1975 ، والمرحلة الثانية أثناء وبعد نشر حسن الطريق دراسته المطولة حول الشعر المعاصر (من خلال اربعة نماذج) في نهاية 1976 وبداية 1977 ، واشتعل الهيجان بعد نشر « الثقافة الجديدة » لمقال أبو الشتا العياشي (الحلم في نهاية الحداد ــ الزمن والسياسة) (العدد 5 ــ 6) ، وهو اجتهاد نشرناه لايماننا بضرورة تمكين الباحثين والمهتمين من فرصة نشر آرائهم وطرحها للمناقشة ، لان الوضعيـة النقديـة بالمغرب غير واضحـة ، ولا بد من اجتهـادات ، مهما قصر وعيها ، تخترق الصمت والاطمئنان . جاء الرد في البداية من جريدة « العلم » لتشكك في « الثقافة الجديدة » كمجلة ، معتمدة علـى التلميح والاشارة ، خاصة وان هذا العدد كان اعلانا عن عودة صدور المجلة بعد توقفها القسري لاسباب قاهرة ، وربما كان هذا الرد يخفي بين صوائتـه وصوامته عدم الرغبة في عودة المجلة الى الصدور . وفي نفس الفترة بدأت ردود الفعل تنفجر على مستوى النقاش الجدي حول المنهج النقدي ، ونحـن هنا ، نعترف بان هناك فرقا بين رد جريدة « العلم » وبين الكتابات التـي كانت تبحث عن سؤال تثيره بصدد ما كتبه العياشي ، ونذكر بالاخص مقالين لنجيب العوفي وفقيه محمد بجريدة « المحرر » . ولكن تدخل حسـن

الطريق وهجومه العلني على « الثقافة الجديدة » وأنصارها ، كان بمثابة الشعلة التي أوقدت الحرائق ، واثارت الفتنة ، وتحول ما كان يمكن ان يكون صراعا حول ازمة النقد ، الى تفاخر وتناحر على الطريقة القبلية .

هكذا كانت البدايات ، وبعدها تحولت الكتابة الى جحيم ، والنقد الى قذف ، وتخاصم المتدخلون في كل شيء ، ما عدا النقد .

نريد أن نكون واضحين ، وربما جسورين ايضا ، لا بالمعنى الاخلاقي للكلمة ، في طرح الحقائق ، فقد مرت علينا حقبة ما تزال تثقلنا بصمتها ، وتصرمت حقب اخرى تناثرت هباء ، ولذلك فضلنا تسمية الاشياء ، وملاحقة الافكار المغلوطة ، نفهمها ونفسرها ، ونعيد طرحها بوعي نقدي لا يتراجع عن اثبات ما يراه حقا ، وفضح ما يراه باطلا .

7 ـ ان هذه المراحل المتكاملة في تأجيج الصراع حول وضعيتنا النقدية كانت تأخذ من نقد الشعر منطلقا لها . وهذه ملاحظة أساسية ، وربما يعود السبب لكون الشعر ذا جذور تاريخية في موروثنا الثقافي ، بالاضافة الى أن الصراعات داخل تياراته بالمغرب أوضح منها في المجالات الابداعية الاخرى ، قصة ورواية ومسرحا وتشكيلا وسينما ، ومن ثم فهو بؤرة الاختلافات ، ومركز الابداع داخل الثقافة السائدة أو الثقافات الاخرى المتواجدة في الساحة الوطنية . على أنه لم تطرح في هذه المراحل ، ولا في هذا الصراع ، اشكالية المنهج الوصفي بوضوح ، ولا من يسأل عن أسرار الانقطاع في النقد المغربي ، أو التجريبية التي يعاني منها ، أو دلالة اكتساح المفهوم البنيوي للنقد ، وخاصة تياره الذي لا يتعارض ايديولوجيا مع مصالح الطبقة السائدة ، او مظاهر النقد الشفوي المثبت في كل لقاء ثقافي ، ثنائيا كان أم جماعيا ، رأينا ، والحق يقال ، صراعا حول جزئيات سعى مثيروها لاحلالها مكان الصدارة في الصراع ، وحول هامشيات لا يستفيد منها النقد والنقاد ، ولا صلة لها بالادب المغربي ومعضلاته .

حاول البعض اثارة مشكلة غياب النقد ، ولكن الجزئيات والهامشيات صدت هذه الاثارة عن الوصول الى هدفها .

هل النقد غائب حقا ؟ بأي صيغة ؟

هذا هو السؤال الذي لم يحقق فيه بشكل يجلي الامور ، ويضع الحقائق في مكانها الصحيح .

8 ـ النقد موجود في الساحة الثقافية بالمغرب . هذا ما نومن به . والوضعية التي هو موجود عليها هي التي تحتاج الى المناقشة .

النقد الموجود بالمغرب شفوي من الدرجة الاولى . ولم يكن للنقد المكتوب أن يوجد ويتطور الا مع وجود وتطور الادب المكتوب والمنشور .

واذا كان النقد الشفوي مزدهرا فلان اللقاءات الادبية ، الشعرية والقصصية والروائية ، تتكاثر يوما بعد يـــوم .

ما هو عدد الروايات المطبوعة بالمغرب ؟

ما هو عدد المجموعات القصصيـــة ؟

ما هو عدد الدواوين ؟

ما هو عدد المسرحيـــــات ؟

ما هو عدد الملاحق الثقافية والمجلات الادبية ؟

لا نريد اعطاء احصائيات ، فهي معروفة . لم تشهـد طباعـة الكتب الادبية تقدما وتناميا الا بعد 1970 ، والعدد المطبوع ضعيف ، والبعض من هذا العدد الضعيف رديء ، ومع ذلك فان ما كتب حول جملة من الكتـــب المطبوعة أو الاعمال المنشورة ، في الجرائد والمجلات ، متقدم من حيث الكم على الاقل . ويكفي التدليل على عطاء النقد المتواصل ، ولو كان دون العطاء الادبي ، وجود الدراسات العديدة المنشورة في الصحف والمجلات ، أو المنشورة في كتب ، وتقديم رسائل جامعية ، نشر بعضها في المجلات المختصة أو في كتب . واذا عدنا الى الابحاث الجامعية الخاصة بالنسبة للسنة الرابعة مـن كلية الآداب (فاس والرباط) فاننا سنصطدم بوفرة الدراسات المقدمة حول الادب المغربي ، قديمه وحديثه ؛ ولكنها لم تجد سبيلا الى النشر . واخيرا نجد أمامنا نقادا شبابا متوقدين حماسة ، ومواظبين على الكتابة والنشر . وفي مقدمتهم عبد القادر الشاوي ، وابراهيم الخطيب ، وادريس الناقوري (البشير الوديوني) ، ونجيب العوفي .

هناك اذن نقد مكتوب ينمو ويتجذر . يتقدم ويتجاوز .

لم يكن النقد المكتوب موجودا لاسباب، وبدأ يظهر وينمو لاسباب ايضا. ليس للمغرب تقليد في النقد المكتوب ، فلم نعرف ناقـدا مثـل ابن سـلام الجمحي أو ابن قتيبة أو الامدي او الجرجاني او ابن رشيق او غيرهم من الاسماء النقدية الهامة في التاريخ النقدي عند العرب بالمشرق، والاندلس .

ربما كان النقد الاخواني بالمغرب ، والمعتمد على الممارسة الشفوية ، هو الطاغي في موروثنا النقدي الضائع ! مع الثلاثينات من القرن العشرين بدأت الكتابة النقدية في الصحف والمجلات ، ولكنها لم تتطور الا بقدر ضئيل في الفترة الفاصلة بين الثلاثينات والسبعينات ، بل ان الانقطاع هو الذي يشكل البنية الاساسية لهذه الكتابة .

كان النقد المكتوب غائبا قبل السبعينات لان الادب المغربي قبل هذه الفترة كان غائبا هو الآخر ، كتيارات ذات أرضية نظرية واضحة ، وممارسة متجانسة ومتكاملة .

ان الادب المغربي في العصر الحديث (ولا نريد هنا طرح اشكالية الادب المغربي القديم بعفوية) كان القارىء يجد صداه النقدي ، بصفة غير مباشرة

في النقد العربي المكتوب بالمشرق ، ومن ثم لم يكن في حاجة الى نقـــاد يكتبون له عن عطاء محدود . تكفيه الكتابات النقديـة بالمشـرق العربـي همـوم مواجهتـــه .

وتلعب الصراعات السياسية دورا في اذكاء الصراع النقدي ، عندمـا يتوافر العطاء الادبي ، على اعتبار أن النقد والابداع غير منفصلين عن الواقع الاجتماعي والتاريخي ، ومن ثم فان النقد يتفتح عندما يجد أمامه الاسباب الذاتية والموضوعية للاسهام في الصراع الاجتماعي . وبما أن الابداع الادبي لم يكن متوفرا بالشكل الذي يسمح للنقد ليأخذ دوره في الصراعات السياسية التي شهدها المغرب ، وخاصة في نهاية الخمسينات ، وطيلة مرحلـــة الستينات ، فان هذه الصراعات السياسية لم تكن وحدها كافية لابراز دور النقد في الصراع الاجتماعي . ولذلك فان الصراع النقدي الذي انفجر في السنة الماضية (وخاصة مع الحملة الانتخابية البرلمانية) وجد الابداع الادبـي الذي يمكنه من الدخول في الصراع السياسي .

أما مجالات النشر ، من جرائد ومجلات وكتب ، فلم تعرف اتساعـــا نسبيا الا مع السبعينات ، ومع اتساعها تصاعد كم الانتاج المنشور ، ابداعا ونقدا . ان اتساع مجالات النشر نسبيا ، في هذه الفترة ، حمل معـــه امكانية تعدد الرأي في الحركة الادبية عامة ، لان ضيق هـذه المجـالات ، وخضوعها لاتجاهات ثقافية محددة ، كان عاملا له اثره على نشر الرأي الواحد، وبالتالي الغاء للآراء الاخرى ، فالنقد في حاجة لتعدد الاختيارات ، ولا يمكن لهذا أن يتحقق الا في ظل منظور ديمقراطي للعمل الثقافي .

وعامل آخر لا يقل أهمية عن العوامل السابقة ، وهو المتعلق بالجانب العلمي . ان كلية الآداب لم يتخرج فوجها الاول من حملة الاجازة الا في اوائل الستينات ، ولم يتصاعد عدد المجازين ، نسبيا ، الا مع السبعينات ، وفي هذه الفترة شهد السلك الثالث ، رغـم جملة العقبات المثبطة للعزائـــم ، والحائلة دون تقدم البحث العلمي ، اقبالا يتزايد يوما بعد يوم .

لكل هذه الاسباب ، وغيرها موجود ، ازدهر النقد الشفوي أولا ، وتركز النقد المكتوب حول أعمال أدبية معينة ، بل وأسماء أدبية معينة . كـــان التقليد هو أن يكتب كل جيل عن جيله ، وكل أصحاب اختيار سياسي عن انصارهم في المجال الابداعي ، ولم تبدأ هذه المنظومة التقليدية تنحل الا مع سنوات قليلة خلت . وما نلمسه الآن ينمو باطراد هو النقد العلمي ، داخل الصحافة التقدمية على الاخص ، وحول الابداع التقدمي من الدرجـــة الاولى دونما نسيان استمرار النقد التقليدي ، بجميع تفرعاته نتيجة الاسباب الموضوعية ، الاجتماعية والتاريخية والثقافية ، التي تمكنه من الاستمرار

ان النقد الشفوي ما يزال طاغيا على النقد المكتوب ، لانه مستقر فـــي الاعماق ، ولانه بعيد عن الكتابة ، هذا المقدس في اللاوعي الجماعي عنـــد

المغاربة ، وهو مع ذلك بذرة تنتظر التفتح حتى تتحول الى نقد مكتوب ، ولا شك أن السنوات الاخيرة بدات في بلورة التساؤل النقدي ، بوعي أكثر ملامسة لقضايا الابداع الادبي ، وهو شيء ايجابي جدا .

9 ـ والصراع النقدي الذي شهدته الساحة الثقافية بالمغرب في السنة الماضية ، رغم أنه لم يضع قضايا النقد في مقدمة اهتماماته دائما ، فانه القى بعلامات كانت تلمع بين حين وآخر ، وهي التي ربما تدلنا على بعض من عناصر هذا الصراع .

لقد سمح الصراع النقدي بتلمس تيارين متعارضين في مفاهيمهما واختياراتهما النقدية ، التي هي ، بالتاكيد ، انعكاس مباشر لاختيارات ايديولوجية وسياسية ، ركز الاول على الاختيار الوصفي في النقد ، بالمفهوم المنحط لهذا المنهج ، ويمكن استنتاج ذلك من خلال دراسة حسن الطريبق للشعراء المغاربة المنشورة بجريدة «العلم» (نهاية 76 وبداية 77) . وهذا المنهج يتضح في التطبيق بصيغة مغايرة عما هي عليه في صراعها النظري، ومتخلفة عن المفهوم الذي وصل اليه الحديث النقدي الوصفي في أوروبا .

فالمنهج الوصفي الذي يمارس من خلاله حسن الطريبق قراءته للشعر المغربي لا يعدو أن يكون استنساخا لبعض المصطلحات والقيم النقدية التقليدية ، بعد أن يمازج بينها وبين بعض المصطلحات والقيم النقدية السائدة في المنهج التاثري . ان حسن الطريبق يعيد كتابة النص المقروء بعد أن يلغيه ، ويحل محله نصا لا علاقة له بالنص الاول . وهو الى جانب ذلك يعود الى بعض الاحداث التاريخية بأسلوب لا علمي ليبحث فيه عن سند لمايطلقه من أحكام ، وما يقدمه كنتائج . ومن ثم كان هذا المنهج خليطا من المناهج ، تلتئم في نقطة واحدة ، وهي معالجة النص بوعي هامشي لا يرقى الى فهم وتفسير المتن الشعري ، كنتاج لغوي ذى بعد أنطولوجي واجتماعي ، له جذوره في الواقع الموضوعي .

ونجد هذا المنهج ، على صعيد التنظير ، يتبنى غير ما يقتنع به عند التحليل ، ولذلك كثيرا ما يتهافت على المصطلحات والمفاهيم والتحاليل الماركسية ، في عدة مجالات من المعرفة ، ليوهم بانه لا يختلف من غيره ممن يعتمدون في قراءتهم للنص الادبي على المنهج الاجتماعي ـ التاريخي . وهذا الانفصام الموجود بين النظرية والتطبيق هو نفسه الذي يفصل بين الشعار والممارسة ، ومثل هذا التعامل مع النص الادبي ، فضلا عن كونه يسلب النقد العلمي جل أدواته ، ويدعي الدفاع عن أهدافه ، نجده في التطبيق معاديا لهما ، ورادعا لدعاتها ، يعتمد التوفيقية في مفاهيمه ، والمهادنة الوصفية في تحليلاته ، ومن ثم فهو يدافع عن مفهوم الامة اجتماعيا والتصالح والسلم الاجتماعيين سياسيا .

أما التيار الثاني ، الاجتماعي ـ التاريخي ، فقد كان وما يزال ، منذ

وسط الستينات الى الآن ، سيد الصراع الثقافي ، خاصة بعد أن أعطاه كل من عبد القادر الشاوي ، وابراهيم الخطيب ، وادريس الناقوري ، ونجيب العوفي ، قوة استطاع بها اكتساح جزء هام من الساحة الثقافية ، من ناحية ، وفرضه على انصار المنهج الوصفي ، من ناحية ثانية . وهو تيار يؤسس منظومة قراءته للنص الادبي على الرجوع بدلالات النص الى خلفياتها الاجتماعية والتاريخية ، ضمن رؤية تعتمد مقولة الصراع الطبقي داخل المجتمع . ان هذا التيار ركز على سوسيولوجية المضمون ، احتذاء بما قام به محمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس ، وبعدهما حسين مروة ، وغيرهم بالمشرق ، ومستفيدين من أعمال لوكاتش وغولدمان ، بعد أن خضعت لمستويات من وعيهم الايديولوجي والنقدي .

ولئن وعي انصار هذا التيار ، منذ بداية الستينات ، ان النقد جزء من الصراع الايديولوجي ، داخل المجالين الثقافي والسياسي بالمغرب ، فانه قد أصبح قاصرا بطبيعة اختياراته ، حيث انه ركز ، وما يزال اغلبه ، على سوسيولوجية المضمون دون اعطاء أهمية لسوسيولوجية الشكل ، وهي نفس الملاحظة التي أبداها الاستاذ عبد الله العروي بشأن كتابات محمود أمين العالم وعبد العظيم انيس في بداية الخمسينات .

ان هذا التيار النقدي ، وكما عبر عن نفسه من خلال كتاباته الاخيرة ، ومن خلال الصراع النقدي ، ولو بصيغة جزئية ، لم يكن جامدا ، بل برهن باستمرار على تجاوز قصور تعامله مع النص الادبي ، منهجا ومصطلحا ، بعد أن بدأ يتعرف على المنهج البنيوي . هذا المنزع واضح في اجتهاد ابراهيم الخطيب ، ولكن ما اصبحنا نلامسه ، وربما بقلق متزايد أيضا ، هو ارتماء مجموعة من النقاد الشباب في أحضان بعض القيم البنيوية ، واعتبارها الجواب الحقيقي والنهائي على كل التساؤلات النقدية . ونحن نعرف ، عن يقين ، بأن هؤلاء ما زالوا يعالجون هذه القيم بوعي قاصر ، ولكننا مع ذلك لا يمكن أن نصمت على ما اختاروه ، أو ما هم بصدد اختياره . وربما كان التسابق على الدفاع عن المنهج البنيوي ، واحدا من قضايا الصراع الذي شاهدناه ونتتبعناه ، وتلعب الجامعة المغربية دورا في هذا التوجيه .

لقد كان من المحتمل أن يظهر التبشير بالبنيوية في وسط المتشبثين بالمنهج الوصفي ، ومن الموالين للايديولوجية البرجوازية ، ولكن الذي حدث هو عكس ذلك، حيث نجد البنيوية الآن تنتشر، وبوعي غير نقدي، وسط انصار المنهج التاريخي ـ الاجتماعي . كان من الممكن أن نتساءل عن أسرار هذه الظاهرة ، ولكن التجربة التاريخية ، في العصر الحديث ، دلتنا على أن كل ما له علاقة بالتحديث والمعاصرة تدعو له البرجوازية الصغيرة ، ولبس البرجوازية أو الطبقة السائدة في العالم العربي . ان هذا المنهج ، حين يستعمل بعيدا عن الوعي النقدي ، يتحول الى خطر قوي على التيار النقدي الاجتماعي

ـ التاريخي بالمغرب ، وبعموم العالم العربي . صحيح ان البنيوية هي رد فعل تجاه المناهج النقدية السابقة عليها ، او المتواجدة معها في الساحة النقدية ، ولكن تفسير ظهور وتسييد البنيوية في العالم الغربي عامة يرد الفعل فقط ليس كافيا ، لان قراءة النص كدليل معقد يخضع في بنيته لقوانين شكلية ، هي دون الوعي الصحيح بمبررات وجود هذا المنهج ، وسيطرته في الغرب ، ودون الوعي الصحيح بطبيعة النص الادبي أيضا .

٢٥ ـ هذان المنهجان ، او التياران ، لهما امتدادهما داخل المؤسسات والمعاهد التعليمية ، وخاصة الثانوية والعليا ، والقاء نظرة سريعة على الكتب المدرسية المخصصة لدراسة النصوص الادبية في المؤسسات الثانوية ، والدروس والمحاضرات والابحاث الجامعية ، تبرهن على هذه الملاحظة . ولذلك فان هذين المنهجين النقديين التجليين في الصحافة المغربية يتأثران ويؤثران بما هو وفي ما هو موجود على الصعيد التعليمي ، سواء اكانت لغة التدريس عربية أم اجنبية (الفرنسية كنموذج) .

واذا كان المنهج الاجتماعي ـ التاريخي هو الذي يمتلك قوة المبادرة داخل الصحافة المغربية ، وخاصة التقدمية منها ، فان المؤسسات التعليمية تعيش وضعا مغايرا ، حيث يسيطر على البحث الجامعي ، والدروس الجامعية ، والكتب المقررة في كل من المؤسسات العليا والثانوية ثلاثة انماط من المنهج اللا علمي ، تتفاعل فيما بينها ، وتعمل مجتمعة على تسييد وعي نقدي مغلوط ، وهي رغم صراعاتها فيما بينها ايضا ، مهما كانت ثانوية وهامشية ، لا تلبث أن تؤدي الى نفس النتيجة :

أ ـ المنهج التفسيري ، المعتمد على شرح المفردات ، وتحديد بعض الصور البلاغية المحددة سلفا من قبل البلاغيين القدماء ، والاهتمام ببعض التخريجات النحوية ، والخصائص الايقاعية ـ العروضية ، مع تقسيم النص الى فقرات ، ووضع مقدمات ونتائج . وهذا المنهج يتراجع يوما بعد يوم في المعاهد العليا ، ولكنه في المؤسسات الثانوية يظل المنهج الطاغي ، به يتكلس ذهن التلميذ ، وتقتل فعالياته الابداعية ، ووعيه التاريخي ـ الاجتماعي .

ب ـ منهجانين وسان بوف ، ولعلهما الاكثر انتشارا ، بعد ان أصبحا مقبولين حتى من طرف أشد العتاة الذين كانوا يرفضونهما بالامس . ورغم ما قد يظهر على هذين المنهجين من بعض السمات العلمية ، من حيث الاهتمام بما هو خارج النص ، فان العمق يظل قريبا من الاول ، وهو الابتعاد عن ادراك النص في كليته ككتابة مشروطة في قوانينها بقوانين خارجية اجتماعية وتاريخية .

ج ـ المنهج البنيوي ، وخاصة الشكلاني منه ، ويجد مجالا واسعا له بين مجموعة من الابحاث والدروس الجامعية على الاخص ، والمدافعون عن

هذا المنهج يظنون أنهم يقومون بثورة داخل الجامعة المغربية ، اذ يعيدون صياغة قوانين النص بأسلوب علمي ، بعيد عما هو ليس نصا . وهذا النمط من المنهج الوصفي ، المتقدم حقا في تفكيك بنيات النص ، يساعد

على فتح آفاق جديدة لقراءة النص ، ولكنه يظل خادعا ومخدوعا في آن واحد ، عندما يعتبر النص ذرة مغلقة ، وغير مشروط في بنيتـــه بالواقع الخارجي ، الاجتماعي والتاريخي . وقد أعطت عصرية هذا المنهج امتيازا معرفيا أمن يتعاطونه ، فيمارسون بهذا الامتيـــاز قمعـــا ، واعيـــا أو غير واع ، لمن هم غير مطلعين عليـــه .

فهذه الانماط الثلاثة تمثل مراحل ثلاثا ايضا لنفس الوعي الخاطيء . ولمراحل تاريخية من سيادة كل واحدة منها . ولم يعد لنا بد من مواجهـة ضلالها ، وفضح ما يترتب عن تسييدها من خلق مفهوم خاطيء حتما للنص الادبي ، ولوظيفته في المجالات الثقافية والاجتماعية والتاريخية .

ويظل المنهج التاريخي ـ الجدلي غريبا وسط معاهدنا ومؤسساتنـــا التعليمية ، وواجهة صراع ثقافي داخل الصحافة التقدمية على الخصوص ، ومن الغريب أن نجد بعض من كانوا ينادون به في الامس أصبحوا منبهرين بمستجدات المنهج البنيوي الشكلاني ، دون أن يستطيعوا التعامل معه بوعي نقـــــدي .

اذن ، هذا المنهجان المتصارعان ، ولو بصيغة غير متكافئة ، داخل الساحة الثقافية ، ومن خلال الصراع النقدي الذي انطلقنا منه في هذه الارضية غير منعزلين عن واقع البحث العلمي ، وواقع التدريس ، وهما ، على عكس ما قد يظن ، يشكلان صورة لواقع عام ومنهج ، تسير وفقه الثقافة المغربية ككل ، في جميع المجلات ، وخاصة في العلوم الانسانية ، في ترابطها مـــع الواقع التاريخي والاجتماعـــي .

ونظن أن النقد المغربي ، الذي يريد حقا ان يكون أداة تحررية داخل الوعي السائد ، ملزم باعادة النظر في توجيهه وممارسته ، ويظهر لنا أن امامه ثلاث مهـام :

1 ـ نقد المنهج الوصفي ، بجميع صيغه ومستوياتـــه .

2 ـ التعريف بالتجربة الانسانية في مجال النقد العلمي ، الذي يعتمد قراءة النص كلغة داخل اللغة ، تتبنين وفق قوانين اجتماعية ـ تاريخية ـ ثقافية من خلال مختلف اجتهاداته ، وفتراته التاريخية ، واقطابه الذين ناضلوا في هـذا الاتجـاه .

3 ـ ممارسة النقد العلمي ، والابداع فيه ، من خلال قراءة الابداع المغربـي داخل مجاله العربي .

ويمكن لهذه المهام الثلاث ، المتزامنة والمتكاملة ، أن تتحقق من خلال الشـــروط التاليـــة :

- المزاوجة بين النقد الصحفي والنقد التنظيري .
- اعطاء الاهتمام لكل من النقد الشفوي والنقد المكتوب .
- ضرورة ممارسة هذه المهمة في اطار من الحوار الديمقراطي ، وتتحمل الصحافة التقدمية ، وطنيا وقوميا ، مسؤولية في فسح المجال أمام الآراء المتعددة ، لان النقد لا يمكن أن يزدهر إلا في جو ديمقراطي .
- اعادة النظر في المصطلحات النقدية ، من خلال مراجعتنا للنقد العربي القديم ، بعد تفكيك تصوراته اللاهوتية ، والاهتمام ، في نفس الوقت ، بالمصطلح النقدي المعاصر بوعي ينزع عنه بعده المثالي ، الاستغلالي .

- الاهتمام بكل من البنيوية ، بوعي نقدي حتما ، والمنهج الاجتماعي التاريخي في الدراسات النقدية الماركسية ، عبر مسارها التاريخي ، ومن خلال قراءاتها الاكثر اجتهادا وتفتحا ، ان هذا يعني ببساطة اعطاء الاهمية للقوانين الداخلية للنص في علاقتها الجدلية مع القوانين الخارجية للبنيات الثقافية والاجتماعية والتاريخية ، اذ ان كل داخل يحتاج الى خارج يفسره .

- توجيه هذه الممارسة نحو خلق شروط عمل جماعي ، يساهم فيه الاكاديميون ، والمهتمون بالنقد ، في تفاعل جدلي مع قاعدة المثقفين ، سواء عن طريق الحلقات الدراسية المغلقة ، أو جمهور المثقفين في الندوات واللقاءات والمناقشات العامة .

- المزاوجة بين توسيع مجال النظرية النقدية ، وبين ممارستها .
- المساهمة في هذه الممارسة النقدية وطنيا وقوميا .

ونظن أن هذا هو الحد الادنى الذي يمكن أن يكون ، مرحليا ، خطوة نحو المستقبل .

12) اذن ، يتضح من هذا أن قراءة النص . كداخل وخارج ، كانغلاق وانفتاح ، ونمط الوعي الاجتماعي والتاريخي . المبنين هذه القراءة ، ليسا أول وآخر ما نحن في حاجة اليه ، هناك الى جانب هذه الضرورة اشكالية الانتقال من الشفوي الى المكتوب ، من الارتجال الى التنظيم ، من التفتت الى التلاحم والترابط . وليس هناك ، في هذه الحالة، انفصال بين الهدف من النقد ـ القراءة ، وبين طرق ووسائل العمل التي تمنحنا القدرة على تغيير الوضع النقدي ، توجيها وممارسة .

لكل هذا قدرنا أن نهيىء ملفا عن الوضع النقدي ، بالمغرب ، وعيا منا بأن الصراع ضروري ، والوضوح في المفاهيم والاهداف واجب . وهذه المهمة نتحمل مسؤولياتها جماعيا ، كباحثين ، وكمهتمين بالنقد ، وكمدرسين، لان المشكل النقدي يتسع ليشمل جميع المجالات الثقافية .

ونحن الآن لا نريد أن نتسرع فنقدم تقييما لما طرح في هذه اللقاءات

والنصوص من آراء ، اننا في حاجة لقراءة هذا الملف ، بعد ان استوى على الشكل الذي هو عليه . ونترك التقييم لجميع المهتمين من النقاد والمثقفين لتوضيح ما غمض ، ولتصحيح ما قد يكون خاطئا ، ولتوسيع ما بدأناه .

هل هذه هي حدود جهدنا ؟

تساؤل مطرح علينا جميعا .